طموحات أردوغان... مغامرات لا أفق لها

خيرالله خيرالله
إعلامي لبناني

هناك سؤال يطرح نفسه بحدّة في هذه الأيّام: ما الذي جعل تركيا تقدم على تصرفات غير طبيعية وتحوّل نفسها إلى طرف تتسم سياسته بالعدوانية في كلّ مكان في المنطقة وحتّى مع الدول الأوروبية؟

كان في استطاعة تركيا اعتماد سياسة "صفر مشاكل" مع محيطها، بما في ذلك اليونان، كما كان يقول وزير الخارجية السابق أحمد داود أوغلو، بدل أن تكون شبيهة بإيران، أي بدولة تبحث عن المشاكل خارج حدودها. لعلّ آخر دليل على العدوانية التركية التحرّش بالعراق، وهو تحرّش أدّى إلى توتر، لا مبرّر له، في العلاقة بين البلدين بعد قتل الجهات العسكرية التركية ضابطين عراقيين كبيرين أحدهما برتبة عميد والآخر برتبة عقيد.

كان في استطاعة تركيا أن تكون حكما في منطقة في حاجة إلى مرجعية عاقلة، بعيدة كلّ البعد عن التهوّر قبل أي شيء آخر.

يكمن الجواب الذي يفسّر كل هذه العدوانية، في أن تركيا تحوّلت إلى رجل المنطقة المريض، تماما كما كانت عليه الدولة العثمانية في المرحلة التي سبقت انهيارها في بداية عشرينات القرن الماضي. من أوصل تركيا إلى ما وصلت إليه شخص اسمه رجب طيّب أردوغان أخذ على عاتقه الترويج لمشروع الإخوان المسلمين بدل السير في طريق الاعتدال والتعقّل بعيدا عن أوهام لا يمكن إلّا أن تبقى أوهاما.

لا يمكن لتطلعات أردوغان وطموحاته، إذا وضعنا جانبا التدخل التركي في سوريا، أن تكون أكثر من سلسلة من المغامرات التي لا أفق لها. هذا يعود بكل بساطة إلى سبب واحد. لا تمتلك تركيا القاعدة الاقتصادية التي تسمح لها بلعب دور يفوق حجمها وذلك على الرغم من كلّ الدعم المالي القطري الذي لا يمكن أن يستمرّ إلى ما لا نهاية.

لعب الموقع الجغرافي دورا في تمكين تركيا، طوال سنوات الحرب الباردة، من لعب دور رأس الحربة في الدفاع عن المصالح الغربية في المنطقة. كانت تركيا، عضو حلف الأطلسي، قوة ردع في مواجهة الاتحاد السوفياتي على غير جبهة. من يتذكّر أنّ سحب الصواريخ الأميركية من تركيا كان جزءا من التسوية التي أدت إلى تسوية بين موسكو وواشنطن سببتها الصواريخ السوفياتية الموجودة في كوبا خريف العام 1962؟

يكمن الجواب الذي يفسّر كل هذه العدوانية في أن تركيا تحوّلت إلى رجل المنطقة المريض تماما كما كانت عليه الدولة العثمانية في المرحلة التي سبقت انهيارها في بداية عشرينات القرن الماضي

كان سحب الصواريخ الأميركية من تركيا عاملا أدّى إلى تراجع الاتحاد السوفياتي الذي سحب صواريخه من كوبا. في الواقع، جاء سحب الصواريخ الأميركية من تركيا بمثابة إنقاذ لماء الوجه للكرملين في وقت ساد العالم خوف من حرب نووية كاد يتسبب بها قرار الزعيم السوفياتي نيكيتا خروتشوف القاضي بنقل صواريخ سوفياتية سرّا إلى كوبا كي تكون على بعد نحو 120 كيلومترا من الأراضي الأميركية.

هذا لا يبرر لعب تركيا في السنة 2020 دورا يفوق حجمها وتجاوزها لحدود معيّنة، وصلت إلى ليبيا ونفطها والتحرش بالعراق المنشغل بإيجاد حلول لمشاكله الداخلية الكثيرة. فالعراق في ظلّ حكومة مصطفى الكاظمي وضع مصالحه فوق أي مصلحة أخرى ورفع شعار "العراق أوّلا".

ترفض تركيا، في الواقع، التعلّم من تجربة فشل المشروع التوسّعي الإيراني الذي في أساسه الهروب المستمر إلى خارج حدود "الجمهورية الإسلامية" التي أسّسها آية الله الخميني في العام 1979 من أجل التغطية على الفشل الداخلي على كلّ صعيد.

لعبت تركيا دورا مهمّا على غير صعيد إبان الحرب الباردة. الأهمّ من ذلك كلّه، أنّها استطاعت لاحقا التصالح مع نفسها في مرحلة معيّنة والقيام بإصلاحات داخلية في العمق أعادت الحيوية إلى اقتصادها. بدأت الإصلاحات في عهد تورغوت أوزال وصولا إلى عهد رجب طيّب أردوغان الذي بشّر في بدايته بالخير، على العكس من نهايته التي جعلت من تركيا رأس حربة للمشروع الإخواني، وهو مشروع لا يمتلك أي مقوّمات تسمح ببناء دولة حديثة.

ليس في هذا المشروع الإخواني، الذي كاد يقضي على مصر لولا الثورة الشعبية في حزيران – يونيو 2013، سوى شبق ليس بعده شبق إلى السلطة. الدليل على ذلك ما آل إليه السودان في عهد الإخوان، بين 1989 و2019 وما تعانيه غزّة التي سقطت في شركهم صيف العام 2007 وباتت سجنا كبيرا، بلا سقف، لأهلها. زايد أردوغان في غزّة. ماذا كانت نتيجة مزايداته غير أنّ الحصار الإسرائيلي مستمرّ ولا أحد يهتمّ بما يفعله؟

من بلد كان في استطاعته أن يكون نموذجا للتطور في المنطقة، سياسيا واقتصاديا وحضاريا وأرضا للتسامح في ظلّ إسلام معتدل، تحوّلت تركيا بسبب رجل واحد إلى حالة مرضية. سارت تركيا في عهد رجب طيب أردوغان في اتجاه التحوّل إلى نظام متخلّف آخر في إحدى دول العالم الثالث. صارت تركيا دولة يتحكّم بها شخص واحد في جيبه كلّ مفاتيح السلطة. لم يعد في تركيا – رجب طيب أردوغان من مكان سوى للموظف المطيع الذي يضع نفسه في خدمة رئيس الجمهورية الذي انفض عنه كلّ شركائه السابقين في حزب التنمية والعدالة مثل عبدالله غول أو أحمد داود أوغلو الذي أسس حزبا جديدا.

وضع رجب طيب أردوغان تركيا في خدمة المشروع الإخواني. وجد لنفسه تغطية ذات طابع شعبوي من نوع الدعوة إلى استعادة أمجاد الإمبراطورية العثمانية... أو تحويل آيا صوفيا إلى مسجد بما يشكل انقلابا على المبادئ التي قامت عليها جمهورية أتاتورك.

عاجلا أم آجلا، لا يمكن لتركيا إلّا أن تستعيد حجمها الحقيقي ودورها الطبيعي في المنطقة بعيدا عن الأوهام التي جعلت أردوغان يطمح إلى بلوغ ليبيا مستخدما مرتزقة سوريين ومعتمدا على الخلافات الأوروبية – الأوروبية، خصوصا بين فرنسا وإيطاليا.

ما نراه اليوم هو استعادة تركية لتجربة فاشلة اسمها إيران ما بعد 1979. يمكن لهذه التجربة أن تدمّر وتخرّب، لكنها لا يمكنها البناء. ما يبعث على الأمل في استعادة تركيا دورا أكثر عقلانية أنّ مشكلتها الحالية هي مشكلة رجل يعتقد أنّ تصدير الأزمات الداخلية إلى خارج الحدود التركية يحلّ له مشاكله الداخلية، بما في ذلك داخل حزبه. لو كان ذلك ممكنا لما كان الاتحاد السوفياتي انهار في بداية 1992 ولما كانت إيران تتخبط منذ أربعين عاما في أزمة جعلت أكثر من نصف شعبها يعيش تحت خط الفقر...

بكائيات رابعة العدوية من القاهرة إلى إسطنبول

محمد أبوالفضل
كاتب مصري

لا تفوّت جماعة الإخوان مناسبة تعتقد أنها تنطوي على مظلومية لها إلا وتتباكى عليها، ومهما مرت سنوات سوف تظل هذه المسألة عقيدة تتحكم في الكثير من التصورات، حيث يتم اجترار الماضي واستخدامه في إسقاطات ممنهجة على الحاضر بغية تحقيق أهداف سياسية في المستقبل.

تناغمت تركيا مع بكائية خاصة بالإخوان المصريين، بحكم أنها أحد أهم الرعاة للجماعة في العالم حاليا، وسايرتها في الاحتفال الحزين بالذكرى السابعة لفض اعتصام رابعة العدوية في القاهرة، والذي يحل اليوم الجمعة، وتحولت تصريحات صدرت في إسطنبول إلى مرثية وظفتها القيادة التركية في حربها ضد الدولة المصرية، واستدعتها كمطية رمزية أملا في تسجيل بعض النقاط السياسية.

خسرت المظلومية التاريخية جزءا من لمعانها السابق ولم تعد تغري بالتجاوب معها وعاما بعد عام أصبح الحديث عن فض اعتصام رابعة مكررا لا يفيد انتقاله من القاهرة إلى إسطنبول في شيء

تستغل تركيا الأحداث المأساوية التي أدت إلى مقتل وإصابة العشرات من المنتمين إلى جماعة الإخوان على يد قوات الأمن المصرية في 14 أغسطس 2013، وتتجاهل السياق العام الذي أدى إلى فض اعتصامي ميداني رابعة العدوية بالقاهرة، والنهضة بالجيزة المجاورة للعاصمة، بالقوة. كما تتغافل عن أن هناك ضحايا سقطوا في صفوف قوات الأمن أيضا، لأن عددا ممن شاركوا في الاعتصامين كانوا مسلحين.

تكمن التناقضات في العبارات والتوصيفات التي ترددها أنقرة، فهي عندما تتحدث عن الانقلاب العسكري المزعوم في تركيا تكيل الاتهامات لأصحابه، باعتبارهم هددوا الأمن والاستقرار في الدولة ويستحقون كل العقاب والتنكيل بهم، بينما في الحالة المصرية ترى من فقدوا أرواحهم "شهداء وضحايا"، في محاولة للتناغم مع الخطاب الإخواني.

ليس من المفيد إعادة سردية فض الاعتصامين والتفاصيل التي أحاطت بهما، لأن الجماعة لا تراجع نفسها ولا فائدة من عبرة، ولا تعترف بخطأ، وتصر على تبني مواقف تجاوزها الزمن، ولا تقر بأن هناك واقعا جديدا يجب أن تتعاطى معه.

تهرب إلى الماضي وتعيد صياغته بالطريقة التي تتواءم مع رؤيتها المبتورة، وتقف عند النتيجة النهائية، وتتجاوز المقدمات والدوافع التي أدت إليها، فالانتقاء عملية فنية ويتم تسخيره لخدمة مرام محددة، ما أدى إلى فجوات من السهولة النفاذ منها لدحض الكثير من مكونات الخطاب الإخواني.

في كل عام تتكرر السردية بهذه المناسبة دون أن يتغير شيء، حتى تحول فض اعتصام رابعة إلى لحن جنائز تعزف عليه الجماعة بآلاتها الإعلامية المتباينة، لتؤكد أن صوتها لا يزال مسموعا، وتتمكن من التشويش على الإخفاقات التي تواجهها، وتمنح أنقرة سلاحا تتاجر به في حروبها المستمرة مع القاهرة، ربما تداوي به البطحات التي ملأت رأسها بعد توالي انتهاكاتها لأبسط حقوق المعارضة التركية.

تلقي قيادات تركية مختلفة حاليا بثقلها وراء بكائية رابعة، وهي مستفيدة من التواجد الإخواني الكثيف في شوارع إسطنبول التي تحولت إلى ملجأ لقيادات كثيرة تسعى إلى زيادة وزنها النسبي من خلال تصاعد الحملات التي تستهدف القاهرة، وباتت الجنازة التي تنصب كل عام محفلا للسباق نحو تعظيم الولاء.

تخيل كثيرون المشهد لو جرى التعامل بليونة مع المعتصمين في ميدان رابعة، حيث يقع في منطقة حيوية، قريبة من مقرات أجهزة عسكرية عديدة وحساسة، وقتها كان هؤلاء زادوا مخازن أسلحتهم، وحولوا مقرهم إلى دويلة تتوسع شيئا فشيئا، فكانت الفاجعة ستكون أكبر، والخسائر أشد وطأة.

يتغافل البعض ممن توقفوا عند الفض وسقطت دموع التماسيح منهم جراء خسائره البشرية، عن أن الوصول إليه جاء بعد محطات تضمنت تحركات وتنبيهات وتحذيرات استمرت نحو شهرين، لم تتم الاستجابة لها عمدا.

يتوقف هؤلاء عند العناوين العاطفية دون حساب التكلفة السياسية، إذا تم التهاون مع معتصمين كل همهم السيطرة على بقعة في القاهرة أو غيرها، وتأمينها كمقر يتحصنون فيه حينا من الدهر، اتساقا مع إيمان غيبي بأن التمدد قادم لا محالة، وهو ما يفسر الصرامة التي تعاملت بها أجهزة الأمن مع الاعتصامين.

تكون المخطط الخطير من تشكيل بؤرة للتظاهر والاحتجاج إلى مركز للحكم والإدارة، ما يعني أن الاعتصام يتعلق بمصير دولة برمتها، ووضعها عمدا على فوهة بركان قابل للانفجار، ويصبح التردد في هذه الحالة خيانة.

من تبنوا فكرة الاعتصام وروجوا له أرادوا الوصول به إلى نقطة تجبر أجهزة الأمن على تركه لأجل غير مسمى، أو استخدام القوة المفرطة ليتحول إلى مظلومية تثير التعاطف معهم، وتجلب الإدانة للنظام المصري، وهو ما حدث فعلا، لكن الواقع لم يتبدل، فلا الإخوان عادوا إلى الحكم، ولا النظام طاله أذى حقيقي، وبقي الحادث بكل عبره ودروسه يتذكره كل جانب بالطريقة التي تروق له.

عندما يرى مصريون ما تمر به بعض دول المنطقة من حماقات أدت إلى تهاوي وانهيار كيانات يدركون مخاطر التقاعس عن الحسم مع الفض، فالضحايا يتحمل مسؤوليتهم من غرروا بهم، ومن زجوا بهم إلى ساحة الاعتصام من خلال خطاب ديني يستخدم مفردات تدغدغ المشاعر وتلغي العقل.

وجد هذا الاتجاه حضورا طاغيا لدى المنتمين إلى الإخوان، ومن حاولوا وصل انتماءاتهم للجماعة خفية عبر صب اللعنات على من قاموا بالفض بذريعة إنسانية وليست سياسية، وغضوا الطرف عما يستوجبه الإنصاف، لأن الانتهاكات تقع على عاتق السبب قبل النتيجة، ويتحمل مسؤوليتها من حاكوا مؤامرة كاملة لتحويل الاعتصام إلى شوكة في خاصرة الدولة المصرية، ولم يعبأوا بما سيترتب عليه.

انتقلت البكائية من القاهرة إلى إسطنبول، واقتصرت العلاقة على ما تجود به وسائل الإعلام ومواقع التواصل الاجتماعي من تصريحات وبيانات لقيادات إخوانية وتركية، فلم تهتز الشوارع وتنتفض الميادين ويخرج المتظاهرون في أي من السنوات الماضية، والذكرى لا تزال طازجة، فهل يتغير الحال بعد أن طواها النسيان تقريبا؟

يعلم من يتعمدون الحديث عنها في الوقت الراهن عدم تأثيرهم، وأنهم فقدوا الكثير من الأدوات السياسية والأمنية، ولم يبق لهم سوى البحث عن مناسبة توحي بأن هناك جسدا ينبض بالحياة، فالصمت هنا ليس أبلغ من الكلام ولم يعد فضيلة عندهم، وقد يرقى إلى مستوى الخيانة، فعندما تتلاشى الخيارات، وتوشك الأبواب على الإغلاق من الضروري اللجوء إلى الضوضاء لتبدو الجماعة مستمرة في مسيرتها.

خسرت المظلومية التاريخية جزءا من لمعانها السابق، ولا تغري الكثيرين بالتجاوب معها، وعاما بعد عام أصبح الحديث عن فض اعتصام رابعة مكررا، ولن يفيد انتقاله من القاهرة إلى إسطنبول في شيء، فالورقة المعنوية التي امتلكها أصحابه للمتاجرة بها جاءت في زمن تتم فيه التصفية في دول بلا مبررات أو تفسيرات.

العرب
أول صحيفة عربية صدرت في لندن
1977 أسسها
أحمد الصالحين الهوني

رئيس مجلس الإدارة
رئيس التحرير المسؤول
د. هيثم الزبيدي

رئيس التحرير والمدير العام
محمد أحمد الهوني

مدراء التحرير
مختار الدبابي
كرم نعمة
حذام خريف
منى المحروقي

مدير النشر
علي قاسم

المدير الفني
سعيدة اليعقوبي

تصدر عن
Al-Arab Publishing House
المكتب الرئيسي (لندن)
The Quadrant
177 – 179 Hammersmith Road
London, W6 8BS, UK
Tel: (+44) 20 7602 3999
Fax: (+44) 20 7602 8778

للإعلان
Advertising Department
Tel: +44 20 8742 9262
ads@alarab.co.uk

www.alarab.co.uk
editor@alarab.co.uk